

الحلقة الرابعة
القَصَصُ الدِّينِيُّ
العَرَبُ فِي أُوْرْبَا

عَبْدُ اللَّهِ الْفَصْلُ

عبد الحميد جودة السحار

اضطربت الأمور في الأندلس وراح الثوار يعلنون
العصيان في كل مكان ، وصارت الأندلس ميداناً
لكل طامع من الولاة ، بالاستقلال بما تحت يده من
الأقاليم والبلاد ، وكان عمر بن حفصون أول من
ثار على أمراء الأندلس ، أيام الأمير محمد
ابن عبد الرحمن الأوسط . وقد انضم إليه كثير من
الجند ، وابتنى قلعة ، واستولى على غرب الأندلس .
وفي أثناء اندلاع هيب هذه الفتن ، تولى عبد الرحمن
الناصر الأندلس .

وكان عبد الرحمن شاباً يتطلع إلى المجد ، مولعاً
بالكفاح ، فما إن مات عبد الله بن محمد

ابن عبد الرحمن ، أمير الأندلس ، حتى تولى عبد
الرحمن حفيده الأمر ، وأعمامه وأعمام أبيه
حاضرون ؛ ولعلهم لم ينازعوه الأمر ، لأن الفتنة
كانت قد طبقت آفاق الأندلس ، والخلاف فاش في
كل ناحية منها ، وقد لاح أن ملك بني أمية في
الأندلس ، يلفظ آخر أنفاسه .

وعزم عبد الرحمن على أن يعيد الهيبة إلى أمراء
الأندلس ، وإن اقتضى الأمر أن يفتحها مدينة
مدينة . فعبا الجيوش ، وبعث عمه المظفر إلى ابن
حفصون الثائر ، الذي تحالف مع حنشو غرسيه ملك
نابار ، وأوردونة ملك ليون ، ومقاتلة الفرنسيين .

والتقى جيش عبد الرحمن بجيوش ابن حفصون
وحلفائه ، فانتصرت جيوش عبد الرحمن ، وقطعت
جبال البيرانية ، واكتسحت جانبا عظيما من
غشقونية ، وراحت تقرر أبواب طلوزة ،

وَاسْتَمَرَّتْ فِي قِتَالِهَا الْمُظْفَرِ حَتَّى مَاتَ ابْنُ حَفْصُونَ
فِي حِصَارِهِ .

٢

وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَزِيرًا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَقَدْ
غَضِبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ ، فَقَتَلَهُ ، فَشَارَ أَخُوهُ أُمَيَّةُ
ابْنَ إِسْحَاقَ ، بِمَدِينَةِ شَتْرِينَ ، وَالتَّجَأَ إِلَى رُودْمِيرَ
مَلِكِ الْجَلَالِقَةِ ، فَجَمَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ جِيُوشَهُ وَانْطَلَقَ
فِي أَزِيدَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ ، إِلَى مَدِينَةِ سَمُورَةَ ،
عَاصِمَةِ الْجَلَالِقَةِ .

كَانَتْ سَمُورَةُ مَدِينَةً حَصِينَةً ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَسْوَارٍ
مِنْ أَعْجَبِ الْبُنْيَانِ ، وَبَيْنَ الْأَسْوَارِ حَوَائِطُ قَصِيرَةٌ ،
وَخَنَادِقُ وَمِيَاةٌ وَاسِعَةٌ ، فَهَجَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِجِيُوشِهِ
عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَافْتَحَ مِنْهَا سُورَيْنِ ، وَعَبَرُوا الْخَنَدَقَ ،

وإذا بجيوش الجلالقة تنقض عليهم ، وتعمل سيوفها
فيهم ، فقتل من المسلمين خمسون ألفا .

رأى أمية بن إسحاق إخوانه يسقطون صرعى ،
فاستيقظ ضميره ، وقرر رودمير أن ينطلق خلف
المسلمين المنهزمين ، ليقضى عليهم ، فدنا منه
إسحاق ، وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان في
عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن ،
فهرع جيش رودمير إلى الغنائم ، فتم للناجين من
المسلمين الانسحاب في سلام .

وتخلص أمية بن إسحاق من رودمير ، وذهب إلى
عبد الرحمن ، فقبله أحسن قبول . وجهز عبد الرحمن
بعد هذه الواقعة عساكر مع عدة من قواده إلى
الجلالقة ، فسارت الجيوش تطلب ثار الذين قتلوا
عند الحندق . ودارت بين المسلمين والجلالقة معارك
رهيبة ، هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من
المسلمين في الواقعة الأولى .

وافتحَ عبدُ الرَّحْمَنِ الأندَلُسَ مَدِينَةً بَعْدَ مَدِينَةٍ ،
وَقَتَلَ حُمَاتَهَا ، وَاسْتَذَلَّ رَجَالَهَا ، وَهَدَمَ مَعَاقِلَهَا ،
حَتَّى دَانَتْ لَهُ الأندَلُسُ جَمِيعًا .

٣

رَأَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ اسْتِبْدَادَ مَوَالِي التُّرْكِ عَلَى بَنِي
الْعَبَّاسِ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْعَبَّاسِيَّ الْمُقْتَدِرَ قَدْ قَتَلَهُ
مَوْلَاهُ مُؤْنِسٌ ، فِي ثَوْرَةٍ جَامِحَةٍ اكْتَسَحَتْ بَغْدَادَ ،
فَتَيَقَّنَ أَنَّ أَمْرَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ هَانَ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ
بِالْخِلَافَةِ مِنْهُمْ ، فَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَلَقَّبَ
بِالْقَابِ الْخِلَافَةِ ؛ فَأَعَادَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ عِزَّهَا ،
وَأَوْصَلَهَا إِلَى أَعْلَى ذُرَا الْمَجْدِ ، وَحَفِظَ لِلْخِلَافَةِ
هَيْبَتَهَا وَوَقَارَهَا ، بَعْدَ أَنْ ذَلَّتْ فِي آخِرِ أَيَّامِ خُلَفَاءِ
بَنِي الْعَبَّاسِ .

وَتَغَلَّبَ الْأَلْمَانُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى الْمَجَارِ ،
فَتَنَفَّسَتْ سُويسِرَةُ نَسِيمَ الْحُرِّيَّةِ ، وَلَكِنَّ الْبُرُوفَانِسَ

والدُّوفِينَ وَجَانِبًا مِنْ جِبَالِ الْأَلْبِ ، وَبَقِيَتْ تَحْتَ
حُكْمِ الْعَرَبِ . وَصَارَ « أَوْتُون » مَلِكُ جَرْمَانِيَةِ ،
أَعْظَمَ مُلُوكِ أَوْرَبَّا ، فَرَاخَ يَتَقَرَّبُ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ ، وَيَبْعَثُ إِلَيْهِ الْوُفُودَ تَوَدُّدًا .

وَبَلَغَتْ قُرْطُبَةُ فِي عَهْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ شَأْوًا عَظِيمًا
فِي الْمَجْدِ ، وَانْتَشَرَتْ فِيهَا الْعُلُومُ ، وَالْمَعَارِفُ ،
وَالصَّنَائِعُ ، وَالْفَنُونُ ، وَالسِّيَاسَةُ ، حَتَّى أَدْهَشَتْ
أَوْرَبَّا بِعَظَمَتِهَا ، وَحَتَّى صَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قِبْلَةً لِمُلُوكِ
الْعَصْرِ ؛ فَرَاخَ الْبَابَا يُرَاسِلُهُ ، وَبَسَطَ إِمْبِرَاطُورُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَأَمْرَاءُ أَسْبَانِيَا ، وَمُلُوكُ فَرَنْسَا ،
وَأَلْمَانِيَا وَبِلَادِ الصَّقَالِبَةِ ، أَيْدِي الْخُضُوعِ لَهُ ، وَصَارَ
شَرَفًا عَظِيمًا لَهُمْ ، أَنْ يَمُدَّ الْخَلِيفَةُ يَدَهُ لِسُفَرَاءِهِمْ
لِيَقْبَلُوها .

وَأَرْسَلَ قُسْطَنْطِينُ ، صَاحِبُ قُسْطَنْطِينِيَّةِ ، إِلَى عَبْدِ
الرَّحْمَنِ رُسُلَهُ ، يَحْمِلُونَ إِلَيْهِ هَدِيَّةً ، فَتَأَهَّبَ النَّاصِرُ
لِاسْتِقْبَالِهِمْ ، فَرَكِبَتِ الْعَسَاكِرُ بِالسَّلَاحِ فِي أَكْمَلِ

عُدَّة ، وَزَيْنَ قَصْرٍ قُرْطُبَةَ بِأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ ، وَأَصْنَافِ
السُّتُورِ ؛ وَلَمَّا اقْتَرَبَ الرُّسُلُ مِنْ قُرْطُبَةَ ، خَرَجَ إِلَى
لِقَائِهِمُ الْقَوَادُّ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالتَّعْبَةِ ، فَتَلَقَّوهُمْ
قَائِدًا بَعْدَ قَائِدٍ ، وَرَحَلَ النَّاصِرُ مِنْ قَصْرِ الزَّهْرَاءِ إِلَى
قَصْرِ قُرْطُبَةَ ، لِدُخُولِ وَفُودِ الرُّومِ عَلَيْهِ ، فَقَعَدَ فِي
بَهْوِ الْمَجْلِسِ ، قُعُودًا رَائِعًا نَبِيلًا ، وَقَعَدَ عَلَى يَمِينِهِ وَلِيُّ
الْعَهْدِ مِنْ بَنِيهِ : الْحَكَمُ ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ ، ثُمَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ ،
ثُمَّ الْأَصْبَغُ ، ثُمَّ مَرْوَانُ ؛ وَقَعَدَ عَنْ يَسَارِهِ الْمُنْذِرُ ، ثُمَّ
عَبْدُ الْجَبَّارِ ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ . وَحَضَرَ الْوُزَرَاءُ عَلَى
مَرَاتِبِهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَوَقَفَ الْحُجَّابُ مِنْ أَهْلِ
الْخِدْمَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْوُزَرَاءِ وَالْمَوَالِي ، وَقَدْ فُرِشَ صَحْنُ
الدَّارِ بِأَبْدَعِ الْبُسْطِ ، وَأَجْمَلِ الطَّنَافِسِ ، وَظَلَّلَتْ
أَبْوَابُ الدَّارِ وَحَنَائِهَا بِظُلُلِ الدِّيَاجِ وَرَفِيعِ السُّتُورِ ،
وَدَخَلَ الرُّسُلُ فَهَالَهُمْ مَا رَأَوْا ، وَقَرَّبُوا حَتَّى أَدَّوْا
رِسَالَتَهُمْ ، وَكَانَ الْكِتَابُ فِي رَقٍّ مَصْبُوغٍ لَوْنًا

سَمَاوِيًّا مَكْتُوبٌ بِالذَّهَبِ بِالْخَطِّ الْإِغْرِيقِيِّ ، وَفِي
دَاخِلِ الْكِتَابِ مُدْرَجَةٌ مَصْبُوغَةٌ أَيْضًا ، مَكْتُوبَةٌ
بِفَضَّةٍ ، فِيهَا وَصْفُ هَدِيَّتِهِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا وَعَدَّهَا ،
وَعَلَى الْكِتَابِ طَابَعُ ذَهَبٍ ، وَزَنُهُ أَرْبَعَةُ مِثْقَالٍ ،
عَلَى الْوَجْهِ الْوَاحِدِ مِنْهُ صُورَةُ الْمَسِيحِ ، وَعَلَى الْآخَرِ
صُورَةُ قُسْطَنْطِينَ الْمَلِكِ ، وَصُورَةُ وَلَدِهِ .

وَأَمَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْلَمَ أَنْ يَخْطُبُوا فِي ذَلِكَ
الْمَحْفَلِ ، وَيُعَظِّمُوا مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ،
وَيَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى ظُهُورِ دِينِهِ وَإِعْزَازِهِ ،
فَاسْتَعَدُّوا لِذَلِكَ .

قَامَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ، صَنِيعَةٌ وَلِيُّ الْعَهْدِ الْحَكَمِ
لِيَخْطُبَ ، وَكَانَ يَدَّعِي مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَأْلِيفِ
الْكَلَامِ مَا لَيْسَ فِي وَسْعِ غَيْرِهِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَصِفَ
مَا رَأَى ، فَهَالَه وَبَهَرَهُ هَوْلُ الْمَقَامِ ، وَأَبْهَتَهُ الْخِلَافَةُ ،
فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى لَفْظَةٍ ، بَلْ غَشِيَ عَلَيْهِ ، وَسَقَطَ إِلَى
الْأَرْضِ .

وقيل لأبي عليّ القاليّ ، صاحب الأُماليّ
والنّوادر ، وهو حينئذٍ ضيفُ الخليفةِ الواقدُ عليه من
العراق ، وأميرُ الكلام ، وبحرُ اللّغة :

- قم فارفعْ هذا الوهيّ .

فقام أبو عليّ القاليّ ، وقال :

- الحمدُ لله ، والصّلاةُ والسّلامُ على محمّدٍ

ﷺ ...

ثمّ انقطعَ القولُ بالقاليّ ، فوقفَ ساكِتًا مُفكّرًا ،
لا ناسيًا ولا متذكّرًا ، وراحَ عبدُ الرّحمن يتلفّتُ إلى
الحكمِ وليّ عهدِهِ ، ولاحتِ الحيرةُ في وجهِ الحكمِ ،
وكادَ زمامُ الأمرِ يُفلِتُ ، فقد وجَمَ العلّماءُ ،
والتصقّتُ ألسِنُهُم بِحُلُوقِهِم ، وإذا بعالمٌ ينهضُ ،
ويبدأ من المكانِ الذي انتهى إليه أبو عليّ ، واستمرّ

يتدفق في قوله حتى قال :

— ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسبل مخوفة فأمناها ؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافية جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصيرتم يدا على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم .

وظل المنذر في تدقيقه كأنه الجدول الرقراق ، والناصر يصيح السمع إليه ، معجبا ببلاغته . وانتهى المحفل ، فأقبل الناصر على ابنه الحكم ، يسأله :

— من هذا الخطيب ؟

— هذا منذر بن سعيد البلوطي .

فقال الناصر :

- واللّٰهُ لَقَدْ أَحْسَنَ مَا شَاءَ ، وَلَئِنْ أَخَّرْنِيَ اللّٰهُ بَعْدُ
لَأَرْفَعَنَّ مِنْ ذِكْرِهِ ، فَضَعَّ يَدَكَ يَا حَكَمُ عَلَيْهِ
وَاسْتَخْلَصَنِي ، وَذَكَّرَنِي بِشَأْنِهِ ، فَمَا لِلصَّنِيعَةِ مَذْهَبٌ
عِنْدَهُ .

وَخَرَجَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ رِبَاطَةِ جَاشِ الْمُنْذِرِ ،
وِثْبَاتِ جَنَانِهِ ، وَبِلَاغَةِ لِسَانِهِ ، وَوَلَاةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
قِضَاءَ الْجَمَاعَةِ .

وبعث أوتون ملك الألمان رُسُلَه إلى عبدِ الرَّحْمَنِ
 النَّاصِر ، وقد اختارَ راهبًا من دَيْرِ غورز يُقال له جان
 ، لتَضَلُّعِهِ في عِلْمِ اللّاهُوت ، ليكونَ ضِمنَ سَفَرائِهِ .
 سارَ الرَّاهِبُ جانٌ ماشيًا على قَدَمِيهِ إلى « فين »
 على نهرِ الرُّون ، ومنها ركبَ في البحرِ إلى برشلونة
 ، التي كانت تابعةً لفرنسا ، وانتقل منها إلى
 طرطوشة ، وكانت أوّلَ مدينةٍ تخصُّ الناصر . فلمّا
 بلغَ سفراءُ ملكِ الفرنجة طرطوشة ، وأذنَ لهمَ عاملُها
 بالمسيرِ في قُرطبة ، انطلقوا في البلاد ، وصاروا
 يَنْزِلُونَ ضيوفاً على أهالي الأندلس . فأكرموا
 وفادتهم ، ممّا جُبِلَ عليه العربُ من كرم ، فبلغوا
 قُرطبة ، دون أن يتكلّفوا درهما واحدا .

وَعَلِمَ النَّاصِرُ بِوَصُولِ وَفْدِ مَلِكِ الْفَرَنْجَةِ ، وَبَأَنَّ
الرَّاهِبَ جَانَ فِي الْوَفْدِ الرَّسْمِيِّ ، وَأَنَّهُ مَا جَاءَ
إِلَّا لِإِثَارَةِ جَدَلٍ دِينِيٍّ ، فَبَعَثَ النَّاصِرُ إِلَيْهِ :

— إِنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يَدْخُلَ مَلِكًا عَظِيمًا ،
كَالنَّاصِرِ وَالْإِمْبَرَاطُورِ أَوْتُونِ ، فِي جَدَلٍ دِينِيٍّ .

فَلَمْ يَقْبَلِ الرَّاهِبُ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَمَا تَجَشَّمَ
الصَّعَابَ إِلَّا لِيُعلنَ رَأْيَهُ الدِّينِيَّ . وَرَكِبَ الرَّاهِبُ
رَأْسَهُ ، فَجَاءَهُ مُطْرَانُ قُرْطُبَةَ يَنْصَحُهُ بِتَرْكِ هَذَا
الْعِنَادِ ، فَثَارَ جَانُ فِيهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— كَفَاكُمْ ذُلًّا ، لَقَدْ رَضِيتُمْ بِخِتَانِ أَوْلَادِكُمْ ،
وَامْتَنَعْتُمْ عَنْ أَكْلِ الْخَنزِيرِ لِإِرْضَاءِ الْعَرَبِ ، فَاذْهَبْ
عَنِّي فَلَنْ أَسْمَعَ لَكَ .

وَعَلِمَ النَّاصِرُ بِعِنَادِ الرَّاهِبِ ، وَتَشَبُّهِه بِإِثَارَةِ الْجَدَلِ
الدِّينِيِّ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ :

— كُنْتُ قَدْ بَعَثْتُ أَحَدَ الْأَسَاقِفَةِ سَفِيرًا عَنِّي ،

فأنظره أوتون ثلاث سنوات ، لذلك أنظرُ سفير
أوتون تسع سنوات ، فأنا أكبر من أوتون ثلاث
مرّات .

ومشت سفارات بين عبد الرحمن الناصر وأوتون ،
انتهت بأن أذن الناصر للراهب جان بمقابلته ،
فتقدّم الراهب ، وقد فرشت أمامه مداخل القصر
بالبسط والدّياج ، فما زال يتقدّم إلى أن وصل إلى
البهو الذى فيه الخليفة ، فوجد الناصر جالسا على
سرير الخلافة ، فلما وصل الراهب إلى مجلسه ،
قدّم عبد الرحمن إليه باطن يده ، تمييزا له عن غيره ،
فقبلها الراهب ، ثم أمر له بالجلوس .

وتحدّث الراهب ، فراح يتوسّط لدى الخليفة
لوضع حدّ لغارات العرب فى فرنسا وإيطاليا ، وأن
تكفّ المستعمرة العربيّة فى جبال الألب ، عن شنّ
الغارة على البلاد المجاورة ، فوعده الناصر خيرا .

ومات الناصر ، وقد خلف في بيوت الأموال
خمسة آلاف ألف ثلاث مرات ، وقد وجد بخط
الناصر أن أيام السرور التي صفت له دون تكدير ،
يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من
كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما .
أربعة عشر يوما هي كل أيام السرور في حياة
خليفة ضرب به المثل في الارتقاء في الدنيا ، وقد
ملك خمسين سنة ، وسبعة أشهر ، وثلاثة أيام .